العيون

لأعذبن العين:

قال الشاعر[1] ابن الصفدي يصف العيون: هي التي توقع القلب في التعب، وتوفر نصيبه من أسهم الهم والنصب، وترميه بدواعي الهوان ودواهي الهوى، وتسلمه إلى مكايدة الغرام ومكابدة الجوى، لو عُذبت بطول السهر وكثرة الدموع وبفيض الشوئن وعدم الهجوع، وبمسامرة الأحزان والفكر، وبمراقبة النجوم إلى السحر، وبعدم الإغفاء وطول السهر -لكان استحقاقها وجود جود الدمع وإن طعا، وعدم منال المنام وإن نما:

لأعـذبن العـين غـير مفكـرٍ ... فـيما جـرت بالـدمع أو سـالت دمـا
ولأهجـرن مـن الرقـاد لذيـذه ... حتـى يعـود عـلى الجفـون محرمـا
هـي أوقعتنـي في حبائـل فتنـةٍ ... لـو لم تكـن نظـرت لكنـت مـسلما
سـفكت دمـي فلأسـفحن دموعهـا ... وهـي التـي بـدأت وكانـت أظلـما

ولعل موجب هذه الواعظة، والألفاظ التي هي بالتحذير لافظة أني خرجت في بعض الأيام متفرجًا وسارحًا، وجائلًا بطرفي في الرياض وسائحًا، وصحبني صديق لي في المحبة صادقٌ، ورفيق لي فيما أروم موافقٌ، قد ملك كل حسن ولطافة، وجمع كل حذقٍ وظرافةٍ، ينصبُ لخدمتي لا يملُّ ولا يسأم،

(١) في لوعة الشاكي ودمعة الباكي.

ويتعب في مرضاتي لا يكل ولا يندم، ويجتهد في موافقتي لا يمن ولا ينم، ويحسنُ مرافقتي لا يُذم ولا يذمُّ، قد اتخذته جهينة أخباري، وكنزًا لخزائن أسراري، لا أستطيع مفارقة وجهه الجميل، وهو عندي كما قيل:

بروحـي مـن لا أسـتطيع فراقـه ... ومـن هـو أوفى مـن أخـي وشـقيقي
إذا غـاب عنـي لم أزل متلفتًـا ... أدور بعينـي نحـو كـل طريـقِ

معاني لفظ العين:

للعلامة أحمد السجاعي المتوفى سنة ١١٩٧هـ قصيدة رائعة في معاني لفظ العين، وهي في فنها غريبةٌ قد احتوت على معانٍ في لفظ (عين)، وقد جعل حروف اسمه في أوائل أبياتها بالترتيب. وهذه هي القصيدة كما نُقلت من خط الشيخ مصطفى البدري في كراسة «مجموعة لغوية»، وقد وضعنا[1] تفسير كل لفظ عين فيها بين (قوسين) بعده:

أيـا ظبـي الفـلا وكحيـل عـينِ ... ويـا بـدر الـدجى وضـياءَ عـين

(الشمس)

حُميـت مـن المكـاره يـا غـزالًا ... حـوى كـل الكـمال بـدون عـين

(العيب)

ملكـت القلـب منـي يـا حبيبـي ... وحـق المـصطفى المجـري لعـين

(١) وضع تفسير كل لفظ عين بين (قوسين) المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا وذلك بالمداد الأحمر.

(الماء)

دعانـــا للهدايـــة نعـــم طـــه ... رســولٌ قــد أبــان لطــرقِ عــينِ

(حقيقة القبلة)

أمــينٌ ســيدٌ مــا فيــه شــكٌّ ... بــه تهــدى الأنــام بكــل عــين

(الناحية)

لــه ذاتٌ خلــتْ مــن كــل ســوءٍ ... وقلــبٌ قــد خــلا مــن شــين عــين

(الرياء)

ســما فــوق الــسماء ونــال قُربًــا ... وخاطــب ربــه وحظــى بعــينِ

(النظر)

جميــلُ الــنفس والأفعــال قطعًــا ... صــفيٌّ خــالصٌ مــن قُــبح عــينِ

(الميل)

أذاع الخــير فينــا كــل وقــتٍ ... وعــوذ أمــةً مــن شر عــين

(إصابة العين)

عــلا رتبًــا فلــيس لهــا انتهــاءٌ ... وأظهــر دينــه لخيــار عــينِ

(الجماعة)

يُقــيم شريعــة غــراء فينــا ... بهــا.. كــم قــد هــدى مــن كــل عــين

(الإنسان)

رءوف بالعبـــاد رحـــيمُ قلـــبٍ عظـيم القـدر سـيد كـل عـين

(الكبير)

كـــريم منتقـــى بحـــر العطايـــا فكـــم مـنح الأنـام جزيـل عـين

(المال)

عظـــيم مُجتبـــى قـــد ظللتـــه لـــدى حـــر عظـائم كـل عـين

(السحاب)

خليـــل الله أحمـــد ذو كـــمالٍ مجـير النـاس مـن لحـظٍ بعـين

(المطر)

رحـــيمٌ بالعبـــاد سريـــعُ بـــاس عـــلى قـــوم لئـــام مثـــل عـــين

(الطائر)

كبـير القـدر في الـدارين حقًّـا مُغيـث النـاس مـن حـرٍّ لعـين

(شعاع الشمس)

رســـول الله أنـــت لنـــا مـــلاذٌ لنـا فيـك الرجـا يـا نـسل عـين

(الخيار)

فكـم صرفـت عنـا مـن كـروب بـدُنيا ثـم أخـرى عمـد عـين

(الجد واليقين)

وخلقـــك مبـــدأ الأشـــياء حقًّـــا حبيـــي أنـــت أول كـــل عـــين

(الشيء)

عليك الله صلى مع سلام أصولك مثل ذا من هم كعين

(الذهب)

وآل ثم أصحاب جميعًا فهم بذلوا لدين كل عين

(الدنيا أو النفس)

وكم قضبوا بسيف الله رأسًا من الأعداء وكم قهروا لعين

(الشديد)

وكم أحيا بهم ربي علومًا مغيبة ومنها ذات عين

(الحضور)

كذا أتباعهم ما قال عبد: أيا ظبي الفلا وكحيل عين

(الباصرة)

وصف العين وأسماء أجزائها:

في أول كتاب «سحر العيون»: الباب الخامس في وصف العين وأسماء أجزائها وعيوبها الخلقية وغيرها.

قال المؤلف: اعلم يا نور الأعيان، وأعز من إنسان عيون الأجفان، أن مقلة العين في اللغة هي: الشحمة التي تجمع السواد والبياض، سُميت بذلك من قولهم: مقلتُ الرجل في الماء: إذا غوصته فيه، وتماقل الرجل في الماء: إذا غاص

فيه، وتماقل الرجلان في الماء: إذا تغاوصا فيه ليُعلم أيهما أصبر على الغوص، فلما كانت حبة العين غائصة في مائها سميت: المقلة، ويقال: ما مقلت عيني مثل فلان؛ أي: ما نظرت، قال اللشيخ شهاب الدين أحمد الحاجبي:

لها عينٌ لها غزلٌ وغزو ... مكحلةٌ ولي عينٌ تباكت

وحاكت في فعائلها المواضي ... فيا لك مقلة غزلت وحاكت

و(الحدقة): هي السواد الأعظم (في العين) سُميت بذلك لأن البياض مُحدقٌ بها، ويقالُ: أحدق القومُ به وحدقوا به -لغتان- أي: أطافوا به من جميع نواحيه.

وقال الشريف الرضي:

يا قلبُ ما لك لا تفيقُ وقد رأتْ ... عيناك كيف مصارع العُشاق؟

فتكت بك الحدق المراض ولم تزل ... تُشجي القلوب جناية الأحداق

و(الناظر): السواد الأصغر الذي يُبصر فيه الرائي شخصه، والعرب تقول: هو مثالها، وإنسانها، ودوابها، وناظرها، وبصرها، وضيها، وغيرها ولعبتها، وبؤبؤها، وتمثالها، وسوادها، وحبها، ومذلكها.

قال ابن مطرف: وهذه الأسماء كلها لموضع البصر الذي في حلسة البصر، والجمع: نواظر، وليس الذي يرى الرائي صورة نفسه في ذلك الماء لصفائه، ويستدل على صحة الحاسة بما تخيل فيه.

و(الناظران) أيضًا: عرقان في العين يسقيان الأنف، يقال: إنه لمرتفع الناظرين، ويقال للذي استحيا من أمرٍ: خفض له ناظريه، والناظر يجمع على: نواظر. قال شارح كتاب الفصيح: نظرت لعيني ونظرت: انتظرت وتنظَّرْتُ.

و(نظرتُ) بمعنى: رحمتُ وتفكرت. وأنظرت الرجل: أخرته، وأنظرته: جعلته ينتظرني، وقوله تعالى: {انظرونا} أي: أمهلونا. قال الشيخ برهان الدين القيراطي:

يـا قـاتلي بنـواظرٍ أجفانهـا ... بـسيوفها الأمثـال فينـا تُـضْرَبُ
قـلْ للغـزال أو الغزالـة إذ رنـت ... أو لاح يهـرب ذا وتلـك تغيـبُ

و(الحماليق): هي بواطن الأجفان، واحدها حملاقٌ. قال ابن مطرفٍ: هي التي تراها -إذ قُلِبتْ للكحل- محمرةً. وقال الزبيدي: الحماليقُ: نواحي العين، ويقال لمؤخري العينين مما يلي الصدغين: الحقيان، الواحد حقيمٌ. والأشفار هي حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر، والواحد: شفْرٌ، ومنه شفيرُ الوادي، وشفيرُ كل شيء حرْفه.

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

إذا كـان شـفْرُ العـين فـوق محلهـا ... فعندي أنـا الأشفارُ خيرٌ مـن العينِ

و(الأهدابُ): الشعر النابت عليها، واحدها: هُدْبٌ -بضم الهاء وسكون الدال المهملة- قال الشيخ برهان الدين:

أهـداب لحظـك للـورى شرك فمـن ... أوثقتـــه فـــيهن لا يتفلـــتُ
كيـف النجـاةُ ورمـح قـدك مشرعٌ؟ ... كيـف الخـلاص وسـيف لحظـك

و(المحْجرُ): ما دار بالعين، وهو ما يبدو من البُرقع والنقاب، وجمعها محاجرُ، ويقال: محجر -بفتح الميم وكسرها، وفتح الجيم وكسرها أيضًا- وإنما سُمِّيَ المحجر محجرًا لأنه مفعل من الحجرِ وهو المنع، فكأنه مانعٌ عن العين من جميع جهاتها، ومنه الحجرة المحيطة بالجدُرِ، والجمع: الحُجُرات.

قال الأمير سيف الدين المشد وأجاد:

إن العيون لك الحصون فهدبها ... شرفاتها وجفونها الأسوار
وكذا تحاجرها الخنادق حولها ... والحافظون بها هم الأنوار

و(الماق) و(الموق): هو طرف العين مما يلي الأنف، وهو مخرج الدمع من العين، ولكل عين موقان، وفي الموقِ وفي جمعه لغاتٌ كثيرةٌ يقالُ: مأق -بالهمز- وجمعه آماق، وموق -غير مهموز- وجمعه أمواقٌ وأماقٍ ومآق. والمقيةُ لغةٌ في الماق أيضًا، والجمع مقى. والماقُ: مقدمها. وقيل: الموق مؤخر العين، ماقٌ يُجمع على مواقٍ مثل قاضٍ وقواضٍ. وفي الحديث: «كان يكتحل من قبَلِ مُوقه مرةً، ومن قِبَلِ ماقِه أخرى».

قال المتنبي يمدح كافور الإخشيدي:

قواصد كافورٍ توارك غيره ... ومن ورد البحر استقل السواقيا
فجاءت به إنسان عين زمانه ... وخلت بياضًا خلفها و(أماقيا)

و(الألحاظُ) جمع لحظٍ، وهو مؤخر العين الذي يلي الصدغ وجمعها لحاظٌ، ولواحظُ. فأما اللحظة فهي النظرة وجمعها: لحظاتٌ في القليل، واللحظ في

الكثير، ويجوز أن يجعل موضع اللحظة. يقالُ: لحظ العين، مثل رأى العين، ويقال: لحظ السماء بطرفه يلحظ لحظًا فهو لاحظ.

قال شيخ الشيوخ الأنصاري بحماة:

يا نظرةً قد جلت لي حسن طلعته ... حتى انقضت وأدامتنا على وجل
عاتبتُ إنسان عيني في تسرعه ... فقال لي: خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلِ

و(الطرف): هو ما مال بأحد السوادين: السواد الأعظم، والسواد الأصغر. قال ابن مطرف: «طرف العين تحرك أشفارها» ويقال: طرفة عينٍ، والعين المطروفة منه مأخوذٌ، وهو أن يُصيب سوادها شيءٌ فيتأذى صاحبها به، وربما أبطلها، وهي (الطرفة)، قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

كم دماء مطلولةٍ في هواه ... وبها ورد خده مطلولُ
وحديثٍ من السقام صحيح ... قد رواه عن طرفه مكحول

و(القبلُ) هو ميل الحدقة في النظر إلى الأنف. وأنشد الثعالبي -وقد استحسنه في فقه اللغة له- قول ذي الرمة:

أشتهي في الطفلة القبلا ... لا كثيرًا يشبه الحولا

وقال جرير:

وما زالت القتلى تمج دماءها ... بدجلة حتى ماء دجلة (أشكلُ)

وقول علاء الدين البديوي:

انا جد أنصار النبي لأنني ... يا أزرق العينين عبدُ (الأشهل)

وأنشدني المولى أبو الفتح محمد الرسام الأزهري:

رنـــت رمـــت فأصـــابت قلبـــي وأذكـــت لهيبـــه
فهـــو المـــصابُ بعـــينٍ (شـــهلاء) وهـــي المـــصيبه

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

وأغيـد كـل شيء فيـه يعجبنـي كـأنما هـو مخلـوقٌ عـلى شرطـي
أجفانه السودُ ما تُخط إذا رشقت سهامها وسهام الليل ما تُخطى

وقال علاء الدين الوداعي:

رمتنـــي ســـود عينيـــه فأصـــمتني ولم تبطـــني
ومـــا في ذاك مـــن بـــدعٍ ســـهام الليـــل مـــا تخطـــي

وقال شهاب الدين الزعفريني:

مليكٌ على العشاق سكران طرفه فـلا عجـب للحـظ منـه يُعربـدُ
شكوت إليه أسر قلبي في الهوى فوقـع لي: سـحرُ الجفـون يُخلِّـدُ

وقال بشار بن برد:

يـا مـن برايـق ريقـه يحيـي الـورى وبـسحر عينيـه النـواعس تُقْبـلُ
مـن سـحر عينيـك ألمهـاة تعلمـتْ وكـذلك النـزلان منهـا تغـزلُ

وقال ابن عباد:

ونظـرن مـن خلـل الـستور بـأعينٍ مـرضى يُخالطهـا الـسقام صـحاح

وله أيضًا:

وسنان قد خدع النعاسُ جفونه ... فحكى بمقلته ذبول النرجس
مذ غض طرفًا بالحياء فإنني ... منه استحيت بأن أُقبِّل مؤنسي

وقال الغزي:

كأنما سوادُ عين منيتي ... كعنبر يا أنفسًا لوامه
لا تنكروا مقالتي تجاهلًا ... مع علمكم بأنها لوامه

وقال الشهاب بن القطان:

شاقني (مارسُ) قُولٍ ... زهره حاكى عيونك
وابتغى التعريض قُلنا: ... لعن الله قرونك

آفة النظر وغائلته:

وكنت إذا أرسلت طرفك زايرًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ولأبي العباي الصيني:

قم فاسقني بين خفق الناي والعود ... ولا تبع طيب موجود بمفقود
كأسًا إذا أبصرت في القوم محتشمًا ... قال السرور له قم غير مطرود
نحن الشهود وخفق العود خاطبنا ... نزوج ابن سحاب بنت عنقود

وله أيضًا:

يقر الله عينك يا جفوني ... فقد أعتقت من رق السهاد
ويا عيني لك البشرى فنامي ... وتهنيك السلامة يا فؤادي
رغبت عن الهوى وهربت منه ... إليك وكنت دهري في جهاد

وله أيضًا:

سقتني لتروي الروح روحًا وحققت ... مواعيدها ذات الوشاح بإنجازِ
على نرجس حيثُ به فكأنما ... أناملها انضمت على حدق البازي

وله أيضًا:

إذا ضاق صدري وخفت العدا ... تمثلت بيتًا بحالي يليق
فبالله نبلغ ما نرتجي ... وبالله ندفع ما لا نطيق

وله أيضًا:

يغيب البدر يومًا ثم يبدو ... فما لك غبت عن عيني ثلاثا
إذا لم تطلع الاثنين عصرًا ... فلست بواجدي يوم الثلاثا

وله أيضًا:

ولقد مررت على الظباء وصادني ... ظبيٌ وعهدي بالظباء تصادُ
نفذت لواحظه إليَّ بأسهمٍ ... أغراضها الأرواح والأجسادُ

وله أيضًا:

صب المداد وما تعمد صبه ... فتورد الخد البديع الأزهرُ
يا من يؤثر حبره في ثوبنا ... تأثير لحظك في فؤادي أكثر

وله أيضًا:

من شاء عيشًا رخيًا يستفيد به ... في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى ما فوقه أدبًا ... ولينظرن إلى من دونه مالا

وله أيضًا:

أدرك بقيـة نفـس روحهـا رمـق ... وقـد أذابـت همـوم الـنفس أكثرهـا
وإنـما سـلمت منهـا بقيتهـا ... لأنهـا خفيـت ضـعفا فلـم ترهـا

وله أيضًا:

ألا حـل بي عجـب عاجـب ... تقـاصر وصـفي عـن كنهـه
رأيـت الهـلال عـلى وجـه مـن ... رأيـت الهـلال عـلى وجهـه

وقال آخر في شوق إلى حبيب:

إن غبـت عـن نـاظري فأنـت ... في القلـب يـا غايـة التمنـي
والظـن أن لا تخـون عهـدي ... لا خيـب الله فيـك ظنـي